نهاية الخلافتين
الشيعية والسنية

الحروب الصليبية

استمرت الحروب الصليبية لفترة أكثر من 500 سنة ، وشملت منطقة جغرافية امتدت من جنوب وشرق البحر المتوسط ، وامتدت إلى أسبانيا وسواحل بحر البلطيق وشاركت فيها فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا واسكندنافيا واسكتلندا وغيرها ، وكان المحرّض عليها البابا أوربان الثاني متذرعاً بدرء خطر السلاجقة عن الكنيسة البيزنطية . فقد كان لاحتلال السلاجقة لأراضي الدولة البيزنطية وتهديدهم للعاصمة القسطنطينية أحد الأسباب المباشرة لنشوب الحروب الصليبية ، وهو ما انتهزته الكتيسة الكاثوليكية لتحسين علاقتها بالكنيسة البيزنطية لاستخدام الغطاء الديني في نزاع الكنيسة مع ملوك وأمراء أوروبا حول النفوذ السياسي والسلطة . وكانت حملات صليبية " شعبية " بقيادة بطرس الناسك قد سبقت هذه الحملات المنظمة .

وقد شن الصليبيون حملتهم الأولى وأحرزوا فيها انتصارات كبيرة متلاحقة في آسيا الصغرى والشام ، فاستولوا على أنطاكيا وطرابلس وصيدا وعكا ويافا وغيرها ، كما استطاعوا أيضاً احتلال بيت المقدس وتأسيس مملكة أورشليم . ولكنَّ عماد الدين زنكي يهاجم الصليبيين ويحرر إمارة الرها منهم ، وسار نور الدين محمود على نهج أبيه نور الدين ، فقض مضاجع الصليبيين ؛ مما جعلهم يردون بالحملة الصليبية الثانية بقيادة كونراد الثالث ولويس السابع ، وتوجهت صوب دمشق ولكنها باءت بالفشل .

أما الحملة الصليبية الثالثة ، فكانت حملة ضخمة استطاع الصليبيون من خلالها إلحاق الهزيمة بصلاح الدين ، ولكنها فشلت في استرداد بيت المقدس ، وانتهت بعقد صلح بين صلاح الدين ورينشارد الأول ، وهو الذي عُرف بصلح الرملة .

وجاءت الحملة الرابعة لتستهدف مصر ، ولكنها غيَّرت وجهتها واتجهت إلى القسطنطينية ، حيث دارت معارك رهيبة دمرت خلالها الكنيسة الشرقية البيزنطية ، وانتهت بإقامة الامبراطورية اللاتينية .

وتتواصل هجمات الصليبيين على مصر فشنوا الحملة الخامسة انطلاقاً من عكا واستطاعوا الاستيلاء على دمياط ، وأعملوا في أهلها القتل وحولوا جامعها إلى كنيسة ولكنهم هزموا في نهاية الأمر ، وعقدوا هدنة مع الملك الكامل محمد بن العادل .

أما الحملة السادسة ، فقد بدت كأنها بعثة ديبلوماسية قادها الامبراطور فردريك الثاني ولم يصطحب معه سوى 600 فارس فقط ، وانتهت إلى عقد معاهدة مع الملك الكامل لمدة 10 سنوات أفضت إلى تسليم بيت المقدس لفردريك ، على أن يظل المسجد الأقصى بيد المسلمين . ويبدو أن المعاهدة قد تسببت في انقسام المسلمين من ولاة الشام مثل ملك حمص ، وملك دمشق ، وملك الكرك ، الذِين اتفقوا سوياً من ناحية ، ومع الصليبين من ناحية أخرى على مهاجمة مصر واحتلالها وتقسيم أراضيها فيما بينهم .

ثم جاءت الحملة السابعة كآخر حملات الصليبيين الكبرى المنظمة ، وكان على رأسها امبراطور فرنسا لويس التاسع ، وكان هدفها مصر أيضاً . ولكن هذه الحملة تلقى هزيمة نكراء .

أما الحملة الثامنة ، فقد قادها لويس التاسع أيضاً بعد عتقه بالفدية ، وتوجهت إلى تونس بهدف الاستقرار بها وجعلها مركز انطلاق للهجوم على مصر ، ولكنها هي أيضاً باءت بالفشل بعد وفاة الامبراطور لويس .

ثم قاد الأمير إدوارد (الملك فيما بعد) الحملة التاسعة ، لتلقى الهزيمة على يد بيبرس أيضاً .

***

اسْتِعْرَاضُ الغَنَمِ

المستنجد بالله

555- 566 هـ

هو ابن الخليفة المقتفي ، وكان منشغلاً بالفلك ، ويقرض الشعر ومن جميل شعره :

عَيَّرَتْنِيْ بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارُ لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ

إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَائِبُ مِنِّيْ فَاللَيَالِي تُزَيِّنُهَا الأَقْمَارُ

وقد شهدت السنة التي تولَّى فيها المستنجد وفاة الخليفة الفاطمي " الفائز " بمصر . وهو ما زال صبياً في الحادية عشرة من عمره ، بعد حكم دام ست سنوات ، وكان الخليفة الصبي يعاني من نوبات الصرع لما رآه من عملية قتل أهله على يد الوزير عباس الصنهاجي ، وهو طفل في الخامسة من عمره .

وكان القائم على أمره وزيره ومدبر شئون دولته " طلائع بن رزيك " الذي استنجدت به نساء الخليفة السابق " وأرسلن إليه شعورهن في طي الكتب " ، فدخل طلائع بن رزيك القاهرة بعد أن فرَّ عباس ومَن معه منها هاربين .

فصار طلائع منذ هذا اليوم الوزير القوي للدولة الفاطمية ، وتلقب بالملك الصالح .

ولما كان الخليفة الفائز طفلاً صغيراً ، ملك " الصالح طلائع " عليه أمره واستبد بكل أمور الدولة . ولم يكتفِ الصالح طلائع بذلك ، بل طمع في منصب الخلافة ذاته ، فما إن تُوفيَ الفائز حتى جاء هو بأميرٍ فاطمي صغير السن وزوجه ابنته ، ونصَّبه خليفة وتلقب بـ " العاضد " . ومما يذكر عن استبداد الصالح طلائع بأمور الدولة أنه قام بنقل جميع أموال قصر الخلافة إلى دار الوزارة ، فلما اشتد بأس الصالح لم يكن أمام نساء القصر إلا أن يدبرنَّ مؤامرة استطعنَ بها الخلاص منه ، فقُتِل عام 556 هـ .

ومما يشهد بقوة منصب الوزارة في ذاك الزمان أن الخليفة العاضد سار في جنازة الوزير الصالح طلائع إلى مدفنه ، ثم إنه قام بتولية ابنه رزيك مكانه الذي لقب أيضاً "بالملك" العادل ، ولعلنا نجد في ألقاب الوزير المقتول طلائع ما يؤكد على مدى القوة التي بلغها منصب الوزارة في تلك الآونة ، فكان طلائع يلقب " الملك " الصالح فارس الدين أبو الغارات " ، وفي المقابل تدنى منصب الخلافة إلى أدنى درك حتى إن الوزير الصالح طلائع قال ذات يوم عن المرشحين للخلافة أنه استعرضهم " استعراض الغنم " .

***

اغتيال الخليفة المستنجد بالله

ووزيره أبي جعفر البلدي

وفي سنة 566 يتم اغتيال الخليفة العباسي المستنجد ، وعن نهاية المستنجد يروي ابن الأثير بأنه كانت وحشة صارت بين الخليفة وأستاذ الدار " أبو الفرج " وأمير آخر يُدعى قطب الدين اللذَيْن اتفقا أن يعجلا بنهاية الخليفة ، وفي المقابل كان الخليفة قد أعد العدة للخلاص من الاثنين ، وكتب بذلك رسالة إلى وزيره ، بعث بها مع طبيبه إلا إن طبيب الخليفة وشى به وأطلع أبا الفرج (أستاذ الدار) على مؤامرة الخليفة والوزير . فاتفق هؤلاء على قتل الخليفة : " فحملاه إلى الحمام ، وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه ، وهو يصيح إلى أن مات رحمه الله " .

أما الوزير أبو جعفر بن البلدي ، فقد كانت بينه وبين أستاذ الدار أيضاً خصومة ، فعمل أبو الفرج على الخلاص منه ، وقد واتته الفرصة لتنفيذ ذلك بعد قتل الخليفة عندما ذهب الوزير أبو جعفر للعزاء في وفاة المستنجد ، " ... فمضى إلى دار الخلافة ، فلما دخلها صُرف إلى موضع وقُتل وقُطع قطعاً ، وأُلقِيَ في دجلة ، رحمه الله " ، على حد قول ابن الأثير .

المستضيء بأمر الله

566 - 575 هـ

هو الخليفة الحسن ، ابن الخليفة السابق المستنجد بالله . وكان أهم حدث وقع في بدايات عهده هو سقوط دولة الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر .

فقد كانت دولة الخلافة الفاطمية في عهد العاضد قد بدأت تترنح تحت وطأة الصراع على السلطة ؛ لتدخل في عهد من الفوضى قادها في النهاية إلى الانهيار ، وكان سبب ذلك هو ضعف نفوذ الخلفاء مقابل تزايد قوة الوزراء ، وكان " صراع الوزراء على سلطة الخليفة " المغلوب على أمره ، هو السبب المباشر فيما آلت إليه هذه الدولة .

***

الأيـوبيـون

كان بداية ظهور نجم الدولة الأيوبية عندما كلف نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه بالتصدى لهجوم الصليبيين على مصر ، وقد اصطحب شيركوه ابن أخيه يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين .

وكان والي قوص المعروف باسم شاور قد ثار في عام 558 على وزير الدولة الفاطمية " الملك العادل " ، ثم يقتله ويتولى الوزارة مكانه ، وما كاد يفعل ذلك حتى يظهر منافس شرس آخر يُدعى " أبو الأشبال ضرغام " ؛ ليستمر تأجج الصراع على النفوذ داخل الدولة ، وتدور معركة بين الاثنين ينتصر فيها ضرغام ، ويصير وزيراً ، ليحمل هو أيضاً لقب " الملك " المنصور ، أما شاور ، فقد هرب إلى السلطان نور الدين محمود صاحب دمشق القوي ، الذي انتصر لشاور ، وأرسل معه إلى مصر جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، وهو ما يرويه ابن الأثير ضمن أحداث عام 559 هـ على النحو

التالي : " أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله نازعه في الوزارة ضرغام ، وغلب عليه فجاء شاور إلى نور الدين ، وطلب منه أن يمده بجيش ، فوجَّه نور أسد الدين إلى مصر الذي استطاع هزيمة ضرغام وعادت الوزارة إلى شاور الذي نقض عهده لشيركوه ، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من شيركوه ... " .

ويجرد نور الدين حملة ثانية على مصر عام 562 هـ بقيادة شيركوه ، فأسرع شاور بالاستنجاد بالصليبيين ، ولكن جيش شيركوه يتصدى لهم ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، وكان النصر حليفاً لشيركوه الذي يهزم الصليبيين في المنيا ، ثم يواصل سيره إلى الإسكندرية فدخلها وانتهى الأمر إلى اتفاق بالهدنة وانسحاب الطرفين من مصر .

ولكن الصليبيين يهاجمون مصر ثانية ويزحفون نحو الفسطاط ، فيقوم شاور بإحراق المدينة لتستمر النار مشتعلة فيها 54 يوماً ، ثم حاصر الصليبيون القاهرة ، فأرسل شاور إلى نور الدين مستنجداً ومرة ثالثة يرسل نور الدين أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر في سنة 564 ، ويخوض معركة ضد الصليبيين ويخرج منها منتصراً ، وفي هذه المرة يتفق شيركوه مع الخليفة العاضد على رأى واحد ، وهو الخلاص من الوزير شاور ، ولم يكتفِ شيركوه بذلك بل إنه أراد القضاء على الفتنة في مصر ، فقتل أيضاً ضرغام ليخلص الأمر كله إلى أسد الدين شيركوه .

ويصير أسد الدين شيركوه (السني) وزيراً للخليفة العاضد (الشيعي) ، فآلت إدارة البلاد الفعلية إليه ، ولكنه لم يلبث أن مات بعدها بشهرين ليتولى مكانه صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة المصرية ، ويمنحه الخليفة العاضد لقب الناصر .

وفي عام 567 هـ يُتوفى الخليفة الفاطمي العاضد ، ليمثل ذلك نهاية الخلافة الفاطمية نفسها ، فما إن مات العاضد حتى أسرع صلاح الدين بقطع الخطبة باسمه على منابر مصر وإقامتها باسم الخليفة العباسي (السني) .

ويبدو أن الأقدار كانت تمهد السبيل أمام صلاح الدين الأيوبي ، فبموت الخليفة الفاطمي العاضد يصير أمر مصر كله إليه ليستقل صلاح الدين بمصر ، وإن ظلت

تحت الولاء الاسمي لنور الدين محمود الذي ما إن تُوفيَ عام 569 ، حتى انقسمت مملكته ، فكان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الأيوبية ، فبادر صلاح الدين بالتوجه إلى دمشق واحتلها عام 570 ، كما استولى على حمص وحماة وتملك حلب .

وما إن حلَّت سنة 582 حتى أصبحت مملكة صلاح الدين الأيوبي تشمل العراق وكردستان والشام واليمن ومصر وبرقة .

وكان نور الدين محمود الرجل ذا الأثر العميق في توجيه دفة الأحداث التاريخية العظيمة ، الذي قال عنه ابن الأثير : " لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل ، والإنصاف منه " .

وإن كان نور الدين هو الذي أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة السني في بغداد ، فقد كان هو الذي أوقف المد الشيعي في المملكة التي ورثها عن أبيه وجده .

وعن نسبه يقول ابن كثير : " هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ، الملقب بقسيم الدولة التركي السلجوقي " .

وفي سنة 575 يموت الخليفة المستضيء .

***

الناصر لدين الله

575 هـ – 622 هـ

هو أحمد ابن الخليفة المستضيء ، وقد اتفق المؤرخون على أن ولايته هي أطول مدة لخليفة ، وهو ما عبَّر عنه السيوطي ، فقال : " ولم يلِ الخلافة أحد أطول مدة منه ، فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة ... " .

وعن خلق وطباع الخليفة الناصر ، يقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ : " كان الناصر سيئ السيرة ، خربت في أيامه العراق ، مما أحدثه من الرسوم وأخذ أموالهم وأملاكهم ، وكان يفعل الشيء وضده ... " .

ومن غرائب الأمور أن المذهب الشيعي الذي تقوضت أحد أعظم أركانه في مصر ، بُعث على يد هذا الخليفة السني في بغداد ، فمما يُروى عن الناصر أنه كان يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية (الشيعي) .

ويورد السيوطي في " تاريخ الخلفاء " قول ابن واصل في الخليفة الناصر :

" كان الناصر شهماً ، شجاعاً ، ذا فكرة صائبة وعقل رصين ... وكان مع ذلك رديء السيرة في الرعية ، مائلاً إلى الظلم والعسف ، ففارق أهل البلاد بلادهم ، وأخذ أموالهم وأملاكهم ، وكان يفعل أفعالاً متضادة ، وكان يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية بخلاف آبائه ، حتى إن ابن الجوزي سُئل بحضرته : من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أفضلهم بعده مَن كانت ابنته تحته . ولم يقدر أن يصرح بتفضيل أبي بكر " .

في سنة 580 هـ يجعل الخليفة الناصر مشهد موسى الكاظم منزلاً آمناً لمن يأوي إليه ملتمساً الأمن ، مما أدى إلى لجوء البعض إليه ، وهو أمرٌ يؤكد على تشيعه .

وفي عام 583 يسترد السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس والعديد من مدن الشام من أيدي الصليبيين .

أما أهم الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فكانت وفاة السلطان طغرلبك شاه آخر ملوك الدولة السلجوقية ، وكذلك وفاة صلاح الدين الأيوبي في 27 صفر 589هـ ، مخلفاً وراءه دولة سنية قوية ثابتة تشمل مصر والشام واليمن والحجاز ، إلا إنه سرعان ما انفرط عقد هذه الدولة ، وانقسمت على نفسها فتنازع إرثها إخوة صلاح الدين وأبناؤه . بل إن الأمر وصل حد التطاحن والاقتتال بين أفراد البيت الأيوبي .

وقد حاول الصليبيون - أثناء ذلك النزاع على السلطة بين أفراد البيت الأيوبي - الهجوم على الشام مرة أخرى فتصدى لهم أبو بكر الملقب بالعادل .

وقد كان العادل أبو بكر الأيوبي لا يقل شجاعةً وحزماً عن أخيه صلاح الدين ، فصمد أمام محاولات الحملات الصليبية المتكررة على مصر والشام ، حتى إنه مات أثناء حصار الصليبيين لدمياط .

وتشهد سنة 615 وفاة العادل أبي بكر ، وهو الذي مضى على نهج أخيه الناصر صلاح الدين ، واستطاع تأليف القلوب وتوحيد البلاد ، كما تصدَّى لحملات الصليبيين ، وقد وافته المنية أثناء حصار الصليبيين لدمياط عام 615 هـ . وهو العام نفسه (615) الذي يروي المؤرخون أنه شهد أول ظهور التتار في مدن وأقاليم " ما وراء النهر " .

***

لما كان لكلِّ بزوغٍ أفولٌ ، وكان لكل شروق غروبٌ ، فقد جاءت نهاية دولة الخلافة العباسية بشعة مفزعة مروعة على يد مَن يأكل اليابس قبل الأخضر مفرقاً كل جامع هادماً قائم في حادثة قلَّما ، بل ندُرَ تكرارها في التاريخ الإنساني ، وهو درس لكل غافل ومرتكز على كل باطل .

يقول ابن الأثير : " حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها وعمَّت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها ، لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها .

ومن أعظم ما يذكرون فعل بختنصر ببني إسرائيل بالبيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من مدن الإسلام ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا ؟ " .

وقد تردد المؤرخ الكبير ابن الأثير كثيراً قبل أن يسجل أهوال ما فعله التتر بالمسلمين وبلادهم ، وهو ما عبَّر عنه ، فقال : " لقد بقيت سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى فمَن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومَن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً " .

***

أما عن التتار كمجتمع ، فقد قال عنهم المؤرخ الشهير الموفق عبد اللطيف البغدادي : " وهذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند ؛ لأنهم في جوارهم ، وبينهم وبين مكة أربعة شهور ، وهم بالنسبة إلى الترك عراض الوجوه ، واسعو الصدور ، خفاف الأعجاز ، صغار الأطراف ، سمر الألوان ، وسريعو الحركة في الجسم والرأي ، تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم ، وقلَّما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ؛ لأن

الغريب لا يتشبه بهم ، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ونهضوا دفعة واحدة ، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه ولا عسكر حتى يخالطوه ، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل وتضيق طرق الهرب ، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم ، والغالب على سلاحهم النشاب ، وأكلهم أي لحم وُجِد ، وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء ، ويقاتلون الرجال والنساء والأطفال ، وكان قصدهم إفناء النوع وإبادة العالم ، لا قصد الملك والمال " .

ويرجع تأسيس امبراطورية التتار إلى " جنكيز خان " ، وهو الاسم الذب اشتُهر به ، أما اسمه الحقيقي فكان " تيموجين " ، وهو اسم واحد من أعداء والده ، كان قد هزمه .

ومما يُروى من أساطير – تمهيداً لإعلاء شأن هذا المقاتل الشرس - أنه عند مولد تيموجين ، كان يقبض على كتلة متجمدة من الدم ، مما كان يعني – حسب معتقدات تلك القبائل الرحَّل – أنه سيكون للطفل مستقبل عظيم . وطبقاً لتقاليد تلك القبائل قام يسوجي – والد تيموجين - بخطبة فتاة من قبيلة أخرى لابنه ، وهو في التاسعة من عمره ، فكان على الصبي الصغير الرحيل للعمل في خدمة أسرة زوجته حتى بلغ الثانية عشرة . وقد تسبب موت أبيه مسموماً في بؤس الأسرة التي صارت تعاني من الفقر المدقع للغاية حتى إن تيموجين قتل أخاه غير الشقيق بعد خلاف حول قليل من الزاد .

وقد تعرض تيموجين - وهو في مقتبل العمر – للأسر والاستعباد ، ولكنه استطاع الفرار كما تعرضت زوجته للاختطاف ، ولكنه تمكَّن من استعادتها ثانية .

ويُعتقد أن تيموجين كان من أتباع الديانة الشامانية ، وهو الدين الذي كان سائداً بين قبائل المغول في آسيا الصغرى . لكن الرجل اشتُهر بالتسامح تجاه الأديان الأخرى .

وعن تأسيس جنكيز خان لامبراطورية التتار يروي عبد اللطيف البغدادي :

" وكان سلطان إحدى الممالك الست ، وهو دوش خان قد تزوج بعمة جنكيز خان فحضر زائراً لعمته ، وقد مات زوجها ، وكان قد حضر مع جنكيز خان كشلو خان فأعلمتهما أن الملك لم يخلف ولداً ، وأشارت على ابن أخيها أن يقوم مقامه ، فقام وانضم إليه خلق المغول ، ثم سير التقادم إلى القان الأكبر ، فاستشاط غيظاً وأمر بقطع أذناب الخيل التي أهديت وطردها وقتل الرسل لكون التتار لم يتقدم لهم سابقة بتملك إنَّما هم بادية الصين ، فلما سمع جنكيز خان وصاحبه كشلو خان تحالفا على التعاضد وأظهرا الخلاف للقان ، وأتتهما أمم كثيرة من التتار وعلم القان قوتهم وشرهم ؛ فأرسل يؤانسهم ويظهر مع ذلك أنه ينذرهم ويهددهم ، فلم يغنِ ذلك شيئاً ، ثم قصدهم وقصدوه فوقع بينهم ملحمة عظيمة ، فكسروا القان الأعظم ، وملكوا بلاده واستفحل شرهم واستمر الملك بين جنكيز خان وكشلو خان على المشاركة .

ثم سارا إلى بلاد شاقون من نواحي الصين ، فملكاها فمات كشلوخان ، فقام مقامه ولده فاستضعفه جنكيز خان فوثب عليه وظفر به ، واستقل جنكيز خان ودانت له التتار وانقادت له ، واعتقدوا فيه الإلهية وبالغوا في طاعته .

ثم كان أول خروجهم في سنة ست وستمائة من بلادهم إلى نواحي الترك وفرغانة " .

أما ابن الأثير فيروي في الشأن نفسه : " فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد شاغرق ، ثم منها إلى بخارى وسمرقند ، فيملكونها ويبيدون أهلها ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها هلكاً وتخريباً وقتلاً وإبادة وإلى الري وهمذان إلى حد العراق ، ثم يقصدون أذربيجان ونواحيها ويخربونها ويستبيحونها في أقل من سنة أمر لم يسمع بمثله ، ثم ساروا من أذربيجان إلى دربند شروان ، فملكوا مدنها وعبروا من عندها إلى بلاد اللان واللكز فقتلوا وأسروا ، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم أكثر من الترك عدداً ، فقتلوا مَن وقف ، وهرب الباقون

واستولى التتار عليها . ومضت طائفة أخرى غير هؤلاء إلى غزة وأعمالها وسجستان وكرمان ، ففعلوا مثل هؤلاء بل أشد .

هذا لم يطرق الأسماع مثله فإن الإسكندر الذي ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة ، وإنما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، وإنما رضي بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأعمره في نحو سنة ، ولم يبقَ أحد في البلاد التي لم يطرقها إلا وهو خائف يترقب وصولهم إليه .

ثم إنهم لم يحتاجوا إلى ميرة ومددهم يأتيهم ، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل يأكلون لحومها ولا غير .

وأما خيلهم فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير .

وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يحرمون شيئاً ، ويأكلون جميع الدواب وبني آدم ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد " .

***

الدولة الخوارزمية

يعود تأسيس دولة الخوارزمية إلى أنوشتكين الذي كان عبداً لدى أحد أمراء السلاجقة الذين كانوا يحكمون البلاد الخوارزمية . وفيما يبدو أن أنوشتكين كان قد أظهر عزيمة وهمّة جعلت السلطان السلجوقي بركيارُق يوليه على إقليم خوارزم ، فصار لقبه من هذا الحين (سنة 490) " خوارزمشاه " ، ولكنه لم يهنأ بما وصل إليه فمات في السنة نفسها ليحل ابنه " محمد " محله ويحمل نفس اللقب . ثم كان أن تُوفي محمد عام 521 هـ ليتولَّى ابنه " اتسز " مكانه عام 522 هـ . وقد سادت علاقة من الود بين والي خوارزم اتسز ، ابن محمد خوارزمشاه ، وبين سنجر سلطان السلاجقة حتى العام 529 هـ ، لكنها تنقلب إلى النقيض عام 530 هـ بعد أن أبدى اتسز طمعاً في أراضٍ تابعة للسلطان السلجوقي ، بل إنه قام بالفعل بالاستيلاء على بعض هذه المناطق ، مما أثار غضب سنجر وحنقه ، حتى إنه بعد هزيمته لاتسز أراد إيذاء اتسز فقام بشطر ابنه إلى نصفين .

وتشهد سنة 533 بداية ضعف ملك السلاجقة ، في حين بدأت شوكة الأمراء الخوارزميين تقوى ، وعجز كل من مسعود وسنجر عن ردهم .

وفي عام 536 ينتهي النزاع بين اتسز وسنجر إلى الصلح ، ولكن ما أن شعر اتسز بقوته حتى أظهر التمرد على سنجر ؛ ليستقل عن حكم الدولة السلجوقية عام 538 هـ ، ولما تُوفي اتسز (الخوارزمي) عام 551 ملك بعده ابنه " إيل أرسلان " ، الذي كان السلطان سنجر قد ولاه على خوارزم ، والمؤرخون يعتبرونه أول سلاطين الخوارزميين المستقلين .

وفي العام (567 هـ) يُتوفى إيل أرسلان (الخوارزمي) ؛ ليصير ابنه علاء الدين تكش سلطاناً بعده ، وقد عاصر تكش الخوارزمي السلطان السلجوقي طغرل الثالث الذي دخل في صراع معه تمكَّن فيه تكش في نهاية الأمر من قتل السلطان السلجوقي .

وبعد وفاة السلطان (الخوارزمي) علاء الدين تولَّى السلطنة ابنه علاء الدين محمد (596 – 617 هـ) .

وتشاء الأقدار أن تجاور أملاك الخوارزميين ممتلكات المغول ؛ لينشأ صراع بين الطرفين ليتطور فيشمل الخلافة العباسية نفسها .

وكانت أول مواجهة بين التتار والخوارزميين قد وقعت بمحض الصدفة لما كان هناك تجاور بين ممالك الطرفين ، وكان جوجي بن جنكيز خان أثناء عودته من إحدى المعارك لاحقته قوات السلطان الخوارزمي : " ... وكانت أوامر القان لابنه هي ألا يدخل في حرب مع المسلمين ... " ؛ لذلك بعث برسالة إلى علاء الدين يذكر فيها أن أباه أمره بالتزام " ... مسلك الأدب إن صادف عسكراً من عساكر السلطانية الخوارزمية ... " . إلا إن السلطان علاء الدين الخوارزمي يرد على جوجي برسالة يقول فيها : " بأن جنكيز خان إن كان أمرك ألا تقاتلني ، فالله تعالى أمرني أن أقاتلك " .

عندئذ اضطر جوجي للدخول في معركة مع السلطان الخوارزمي ، إلا إن المعركة كانت غير حاسمة .

وكان السلطان علاء الدين قد حرص على تتبع أخبار جنكيز خان ، وما إن وصلته أخبار استيلاء جنكيز خان على بكين عاصمة دولة الصين الشمالية ، فأراد أن يستوضح الأمر فأرسل وفداً يستقصى أخبار التتار ، وعندما وصل الوفد حدود طغماج ، واقترب من عاصمة التون خان ، بدت لهم على مسافة بعيدة أكمة عالية بيضاء ظنوها جبلاً تكسوه الثلوج ، فسألوا عن سرِّ هذا المكان ، فقيل لهم إنها عظام الناس الذين قتلهم المغول .

وعن بدء الصراع واتقاد جذوته بين التتار بزعامة جنكيز خان وبين الممالك الإسلامية .
يقول عبد اللطيف البغدادي :

" فأرسل خوارزم شاه محمد بن تكش صاحب خراسان الذي أباد الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة ، فلم يتهيأ له كما تقدم ، فأمر أهل فرغانة والشاش وكاسان وتلك البلاد النزهة العامرة بالجلاء والجفلى إلى سمرقند وغيرها ، ثم خربها جميعاً خوفاً من التتار أن يملكوها لعلمه أنه لا طاقة له بهم .

ثم صارت التتار يتخطفون ويتنقلون إلى سنة خمس عشرة (615 هـ) ، فأرسل فيها جنكيز خان إلى السلطان خوارزم شاه رسلاً وهدايا ، وقال الرسول : إن القان الأعظم يسلم عليك ، ويقول لك ليس يخفى عليَّ عظم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ونفوذ حكمك على الأقاليم ، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ، وأنت عندي مثل أعز أولادي ، وغير خافٍ عنك أنني تملكت الصين ، وأنت أخبر الناس ببلادي ، وأنها مثارات العساكر والخيول ومعادن الذهب والفضة ، وفيها كفاية عن غيرها ، فإن رأيت أن تعقد بيننا المودة وتأمر التجار بالسفر لتعلم المصلحتين فعلت ، فأجابه خوارزم شاه إلى ملتمسه وبشر جنكيز خان بذلك ... " .

أما السبب المباشر الذي أدى إلى المواجهة المحتومة بين الخوارزم والتتار ، فكانت حادثة وقعت بين علاء الدين خوارزمشاه وبين جنكيز خان ، وهو ما يرويه عبد اللطيف البغدادي على النحو التالي :

" ... واستمر الحال على المهادنة إلى أن وصل من بلاده تجار . وكان خال خوارزم شاه ينوب على بلاد ما وراء النهر ، ومعه عشرون ألف فارس فشرهت نفسه إلى أموال التجار ، وكاتب السلطان يقول إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزي التجار ، وما قصدهم إلا التجسس ، فإن أذنت لي فيهم ، فأذِن له بالاحتياط عليهم ، فقبض عليهم وأخذ أموالهم ، فوردت رسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه تقول إنك أعطيت أمانك التجار فغدرت ، والغدر قبيح ، وهو من سلطان الإسلام أقبح ، فإن زعمت أن الذي فعله

خالك بغير أمرك ، فسلمه إلينا ، وإلا سوف تشاهد مني ما تعرفني به ، فحصل عند خوارزم شاه من الرعب ما خامر عقله ، فتجلد وأمر بقتل الرسل فقتلوا . فيا لها من حركة لما أهدرت من دماء المسلمين وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم " .

كانت هذه الحادثة هي السبب المباشر والشرارة الأولى التي أشعلت فتيل الحرب بين التتار وبين الدولة الخوارزمية ، كما كانت حملات جنكيز على الدولة الخوارزمية مفتاحاً لغزو العالم الإسلامي .

وقد طلب جنكيز خان من السلطان علاء الدين محمد أن يثبت حسن نواياه ، ويسلمه إينال ، إلا إن السلطان لم ينفذ طلب جنكيز ، ويُقال إن إينال هذا كان قريباً لتركان خاتون أم السلطان الخوارزمي ، وهي المرأة القوية وصاحبة النفوذ في الدولة ، وهكذا قد يكون رفض خوارزم شاه تسليم إينال راجعاً لقرابته لتركان خاتون ، فما كان من جنكيز خان إلا أن زحف بجيوش أربعة ، وضع على رأس كل واحد منها ابناً من أبنائه وصلت أول هذه الجيوش إلى مدينة أترار التي كانت تعتبر مفتاحاً لإقليم ما وراء النهر وكان إينال خان ما زال حاكماً على المدينة ، التي قام بتحصينها ، وقد قاومت إترار أكثر من خمسة شهور حتى بقى إينال وحيداً ، ثم اقتيد حياً إلى معسكر جنكيز خان : " فأمر بسبك الفضة وقلبها في أذنيه وعينيه فقتل تعذيباً ... " .

ثم يتقدم المغول ويتوغلون بسرعة إلى قلب البلاد الخوارزمية ، ويحتلون أهم مدنها ، فيحاصر جنكيز بخارى عام 616 لتسقط في يده بعد أيام قليلة ، ثم يستولي بعد ذلك على سمرقند . وما إن فرغ جنكيز خان من ذلك حتى كلف بعض قواده بملاحقة خوارزم شاه ، أما السلطان فقد غلب عليه الخوف والهلع ومهم على وجهه لا يلوي على شيء ... في الوقت الذي أمر جنكيز رجاله بتعقبه قائلاً " اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء " .

وأثناء سعي القوات المغولية وراء السلطان الخوارزمي استولت على مدينة الري التي كان لسقوطها أثرٌ بالغ في نفوس الخوارزميين ، فأخذ قوادهم وأمراؤهم لا يفكرون

سوى في النجاة من الهلاك . وكان هذا شأن السلطان نفسه ، فسلك سبيل النجاة بحياته ليستقر به المقام في إحدى قرى مازندران . وما إن علم أن التتار بأمره حتى قرروا مهاجمة القرية ، فما كان من السلطان علاء الدين محمد ، إلا أن ركب سفينته وأسرع بها ، بينما كانت سهام الأعداء تنهال عليه من كل جانب ، حتى وصل إلى جزر في بحر قزوين ليموت هناك بعد أن اشتد عليه المرض .

وعن نهاية خوارزمشاه يروي عبد اللطيف البغدادي :

" ثم سار جنكيز خان إليه فانجفل خوارزم شاه عن جيحون إلى نيسابور ، ثم ساق إلى برج همذان رعباً من التتار ، فأحدق به العدو فقتلوا كل من معه ، ونجا هو بنفسه فخاض الماء إلى جزيرة ولحقته علة ذات الجنب ، فمات بها وحيداً فريداً وكُفِّن في شاش فرّاش كان معه وذلك في سنة سبع عشرة ، وملكوا جميع مملكة خوارزم شاه " .

وكان السلطان قد أوصى وهو على فراش الموت عام 617 لابنه جلال الدين منكبرتي الذي جمع في غزنة فلول جيوش الخوارزمية بينما كانت جيوش جنكيز قد وصلت مدينة جرجانية عاصمة خوارزم وحاصرتها ، ثم دخلوها وقتلوا جميع من فيها : " ثم إنهم فتحوا السد الذي يحجز ماء جيحون عن البلد ، فدخله الماء فغرق البلد جميعه ، وتهدمت الأبنية ، وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة " على حد وصف ابن الأثير .

ويهاجم التتار مدينة مرو ليقتلوا جميع سكانها ، ثم كان الهجوم على نيسابور عام 618 :

" وأقاموا 15 يوماً يخربون ويفتشون المنازل عن الأموال ... وأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رءوسهم لئلا يسلم من القتل أحد " ،كما يذكر ابن الأثير في كتابه .

أما الجويني فيذكر " أنهم قطعوا رءوس القتلى وبنوا منها أهرامات عالية أحدها للرجال ، والآخر للنساء ، والثالث للأطفال " .

وفي عام 618 أيضاً يلتقى جلال الدين بالجيش المغولي ، فاستطاع هزيمته ، وفي معركة تالية ينتصر جلال الدين أيضاً ، إلا إن الفرقة تدب بين قوات جلال الدين ، الذي لم يجد بداً من الفرار .

***

أما دولة الأيوبيين فقد آلت بعد وفاة العادل أبي بكر الأيوبي إلى انفصام عرى وحدتها ، وانفراط شمل أبناء البيت الأيوبي ، فانقسمت المملكة بين أبناء العادل الثلاثة الكامل محمد ، والمعظم عيسى والأشرف موسى .

وما إن مات العادل أبو بكر ، حتى بادر الصليبيون بالهجوم على الشام ومصر وخاصة مصر ، حتى إنهم شنوا عليها ثلاث حملات (صليبية) متتابعة ، جعلت الكامل محمد رغم بطولاته الكبيرة في حملة دمياط سنة 618هـ يتنازل طواعية عن بيت المقدس لملك ألمانيا فريدريك الثاني سنة 625هـ .

***

الظاهر بأمر الله

622 – 623 هـ

هو أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله ، ابن الخليفة السابق ، وقد تولى وهو في الثانية والخمسين من عمره ، وقد آثر إقامة العدل فأبطل : " المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق ، وبإسقاط جميع ما جدده أبوه ، وكان ذلك كثيراً لا يحصى " .

ويروي ابن الأثير أن الظاهر قد عثر : " في بيت من داره على ألوف رقاعٍ كلها مختومة فقيل له : لِمَ لا تفتحها ؟ قال : لا حاجة لنا فيها ، كلها سعايات " .

وفيما يبدو أن الظاهر كان زاهداً غير مقبل على الدنيا ، فقد قيل له ذات يومٍ :

" ألا تتفسح ؟

قال : لقد يبس الزرع .

فقيل : يبارك الله في عمرك !

قال : مَن فتح دكاناً بعد العصر إيش يكسب ؟ " .

ولم يمكث الظاهر في الخلافة سوى تسعة شهور وعدة أيام .

***

المستنصر بالله

623 – 640 هـ

هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، بويع بعد وفاة أبيه . وقد شهدت بدايات عهده صدامات عديدة بين التتار والخوارزميين .

ففي سنة 624 : ينتصر جلال الدين منكبرتي في إحدى المعارك مع التتار .

كما تستمر المعارك بين جلال الدين والتتار سجالاً في سنة 625 .

وفي عام 626 : يُتوفى جنكيز خان مؤسس امبراطورية المغول .

وفي سنة 627 : يتقاتل جلال الدين بن خوارزم شاه مع الأشرف بن العادل ، وينتهي الصراع بينهما بالصلح .

وفي سنة 628 : يهاجم التتار الجزيرة وديار بكر ، فدمروا وقتلوا وأفسدوا ونهبوا كعادتهم . وامتد هجوم التتار إلى بلاد أخرى ، ولم يقوَ جلال الدين على التصدي لهم ، بل ظل يفر أمامهم من موقع إلى آخر حتى انتهى به المطاف إلى الهند ليغادرها فيما بعد ، ويتجه إلى كرامان بالعراق ويفشل جلال الدين في عقد تحالفات ، بل يصل به الأمر إلى أن خانه أقرب الناس إليه ، مثل أخيه غياث الدين ليهرب السلطان الخوارزمي ويختفي أثره .

في سنة 631 : يشيد الخليفة المستنصر مدرسة لتدريس فقه السنة ، يقول عنها السيوطي : " مدرسة ما بُني على وجه الأرض أحسن منها ولأكثر منها وقوفاً " .

وعن المدرسة نفسها يقول ابن كثير في " البداية والنهاية " : " لم يبن مدرسة قبلها مثلها ، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً ، وأربعة معيدين ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين ، وشيخ

طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد ... " .

كان إذن إنشاء مدارس لتعليم فقه السنة أسلوباً اتبعه العديد من الملوك للوقوف في وجه انتشار المذهب الشيعي ، وفي قلب القاهرة القديمة مازالت البوابة الضخمة للمدرسة الصالحية باقية تشهد على أهمية هذه المدارس ، وقد شيدها آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح نجم الدين أيوب إبَّان حكم الخليفة العباسي المستنصر ، كما شيَّد الملك الأشرف ، صاحب دمشق ، ما يعرف بدار الحديث الأشرفية .

وفي سنة 633 : تتجه نية التتار لمهاجمة الموصل ، فتتصدى لهم قوات الخليفة المتواجدة في إربيل وتنتهي المواجهة إلى عودة التتار من حيث جاءوا بعدما ما عاثوا في البلاد قتلاً وتخريباً .

ويطالعنا للمرة الأولى خبر التحالف الخطير الذي سيمتدُّ طويلاً بين حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ الرومي الأتابكي وبين المغول ، وبينما كان أهل إربيل يموتون عطشاً ، كان بدر الدين لؤلؤ يمدُّ المغول بكل ما يحتاجونه .

وفي عام 634 : يعاود التتار الهجوم على إربيل فيحاصرونها ويدكون حصونها بالمجانيق ويدخلون المدينة ، فيلجأ أهلها إلى القلعة ويقاتلون التتار قتالاً مريراً ، وكان أمير الموصل قد أخذ جانب التتار وتحالف معهم ، ولكن عندما تصل الأخبار بوصول جند الخليفة ينسحب المغول .

وفي العام التالي (635 هـ) شاع الخبر في مدينة إربيل بنية التتار في الهجوم على المدينة فهجرها أهلها ، ولكن المغول يغيرون وجهتهم ليهاجموا أعمال بغداد ويعيثوا فيها فساداً فيعلن الخليفة الجهاد ، فأذعن له خلق كثير ، فلما رأى المغول الحشد ولولوا مدبرين فلاحقهم جند الخليفة وأعملوا فيهم السيف .

ويشهد عام 637 وفاة الكامل محمد ليتولَّى بعده أخوه الصالح أيوب . وقد استطاع الصالح نجم الدين أيوب خلال عشر سنوات هي مدة حكمه إحراز انتصارات عديدة على الصليبيين .

وفي سنة 638 : يبعث جنكيز خان ، ملك التتار ، إلى ملوك المسلمين يدعوهم إلى الدخول في طاعته وكان : " عنوان الكتاب : مِن نائب ربِّ السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قان قان ... " .

***

المستعصم بالله أبو أحمد

640 – 656 هـ

وفي سنة 640 : يُتوفى الخليفة المستنصر ، فأحجم أولو الأمر عن تولية أخيه "خفاجي" لما يمتاز به عن أخيه " المستعصم " بصفات كقوة الشكيمة والشجاعة والشهامة ، وهو ما يبدو في موقفه من التتار ، إذ كان الخفاجي هذا يقول : " إن ملكني الله الأمر لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار وأستأصلهم " .

فلما تُوفي المستنصر لم يرَ القائمون على أمر الخلافة إسناد هذا المنصب إلى الخفاجي لخوفهم منه فآثروا عليه المستعصم لما فيه من لين وضعف الهمة ليكون لهم الأمر ، فأقاموه لسهولة سيطرتهم عليه . والمستعصم هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله آخر خلفاء بنى العباس العراقيين . وقد بويع له بالخلافة عند موت أبيه بعد أن تجاوز عمره الثلاثين عاماً ووصفه المؤرخون بأنه كان كريماً حليماً سليم الباطن حسن الديانة . وكان مما قال فيه الشيخ قطب الدين أنه : " كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ، ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة " .

***

دولة المماليك البحرية

648 – 784 هـ

تعني كلمة مملوك في اللغة العبد أبيض البشرة ، وقد امتاز المماليك عن غيرهم من العبيد بتربيتهم العسكرية ، وهو ما أتاح لهم فرصة الانعتاق من العبودية ، بل والترقي في مناصب الدولة والجيش ، بل إن بعضهم وصل إلى سدة حكم البلاد ، وكان بدء ظهورهم في العصر العباسي حين استعان بهم الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد ، وبلغ اهتمامه بهم حد أن شيد لهم مدينة " سامراء " التي اتخذها عاصمة لحكمه عام 221 هـ ، ومن هؤلاء برز حكام عظام استطاعوا الاستقلال عن حكم الخلافة مثل أحمد بن طولون ومحمد الإخشيد ، بل وصل بهم الأمر أن أسسوا دولة المماليك التي توالوا على حكمها الواحد تلو الآخر . فقد نشأت دولة المماليك البحرية بمصر في عصر هذا الخليفة العباسي " المستعصم بالله " ، أما ظهور المماليك المعروفين بالبحرية فيرجع إلى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي اتجه إلى شراء المماليك ليكوّن منهم جيشاً وقواداً . وأما نشأة دولتهم الفعلية فتعود إلى شجر الدر التي كانت جارية الملك الأيوبي الصالح نجم الدين .

وقد استطاع السلطان نجم الدين أن يحرز نصراً مؤزراً على الصليبيين في سنة 642 هـ ليسترد بيت المقدس ومدناً أخرى مثل دمشق سنة 643هـ وعسقلان سنة 645هـ .

وكان الصالح أيوب في الشام يحارب منافسيه من ملوك الايوبيين حين وصلته أخبار أن ملك فرنسا لويس التاسع في طريقه لغزو لمصر . وفي العام 647هـ يهاجم الصليبيون مصر عن طريق البحر (المتوسط) ويستولون على ثغر دمياط ، بينما كان السلطان الملك الصالح يعاني مرضاً شديداً يُودي في النهاية بحياته في شهر شعبان من العام نفسه (647هـ) ، فتخفي زوجته شجر الدر خبر وفاة السلطان ، وتبعث في استدعاء

تورانشاه ، ابن الصالح ؛ ليحتل مكان أبيه . وعندما تنامى خبر موت الملك المصري الصالح نجم الدين أيوب طمع الصليبيون في الاستيلاء على القاهرة ، فهاجموا جنوب المنصورة لينهزم الجيش المصري ويُقتل قائد الجيش فخر الدين يوسف ليتولّى مكانه الأمير المملوكي فارس الدين أقطاي والقائد ركن الدين بيبرس الذي استطاع إلحاق هزيمة نكراء بالصليبيين وقتل منهم الكثيرين ، من بينهم شقيق الامبراطور نفسه ، وانتهت المعركة باستسلام لويس التاسع ، بل ووقوعه في الأسر .

***

ولكن الخلاف ما يلبث أن يدب بين تورانشاه – ابن الصالح نجم الدين – وبين شجر الدر والمماليك ، مما جعلهم يتآمرون ضده ويقتلونه : " في المحرم سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة وثب عليه غلمان أبيه فقتلوه ... " .

وكان أن اتفقت آراء المماليك على تولية شجر الدر : " وأمروا عليهم جارية أبيهم شجر الدر وحلف لها الأتراك ولنائبها عز الدين أيبك التركماني ، فشرعت شجر الدر في الخلع للأمراء والأعطيات " . وحملت لقب : " المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين " . وكان " خليل " هذا هو ابنها من الملك الصالح .

ولكن تولية شجر الدر يصطدم برفض الأيوبيين بالشام والخليفة العباسي المستعصم ، الذى بعث إلى المصريين رسالته المشهورة التي قال فيها : " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً ! " .

وهكذا لم تجد شجر الدرّ إزاء هذه المعارضة الشديدة بداً من التنازل عن العرش للأمير المملوكي عز الدين أيبك أتابك العسكر الذي تزوجته ، وتلقب باسم الملك المعز ، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوماً .

ولكن ما أن يستتب الأمر للمماليك في حكم مصر بقيادة السلطان أيبك ، حتى بدأ أمر فارس الدين أقطاي يستفحل . فلما أحس السلطان عز الدين أيبك بتعاظم خطره قرر

قتله بالتعاون مع مملوكه سيف الدين قطز والمماليك المعزية ، كما ساعدت شجرة الدر أيضاً عز الدين أيبك علي التخلص من أقطاي ، الذي استدرجه أيبك إلى قلعة الجبل واغتاله ، وألقى برأسه إلى المماليك البحرية الذين تجمعوا تحت القلعة ، مطالبين بالإفراج عنه ، وكان ذلك سنة 652 هـ . غير أن أيبك نفسه لم يلبث أن انقلب علي شجر الدر بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد ، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج ، وتمرس بإدارة شئون البلاد ، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة " بدر الدين لؤلؤ " صاحب الموصل . فغضبت شجر الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرة للتخلص من أيبك ، فاحتالت عليه وقتلته في ربيع الأول من عام 655هـ . ثم أشاعت شجر الدرّ أن المعزّ لدين الله أيبك قد مات فجأة بالليل ، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها وحملوها إلى زوجة عز الدين أيبك التي أسلمتها لجواريها ؛ ليقتلن شجر الدر ضرباً بالقباقيب ، ثم أُلقيت جثتها من سور القلعة ، وتركت جثتها في العراء لعدة أيام تتناوشها الجوارح .

***

الأَمِيْرُ الفَهْد : الظاهر بيبرس

الأمير الفهد هكذا كان اسم بيبرس بالتركية ، وهو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي لقب بـأبي الفتوح . سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي ، ولد بيبرس نحو عام 620 هـ ببلاد القبجاق أو قازاخستان الحالية ، وقد لاقى في طفولته وصباه ما عانى من مثله من أطفال تم خطفهم أو باعهم أهلهم لضيق ذات اليد ، بل إن بيبرس قد بيع عدة مرات إلى أن اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار الذي انتسب إليه بيبرس ؛ فلقب بالبندقداري ، ثم التحق بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أعتقه ليصير

أحد أمراء المماليك ، وينضم في نهاية الأمر إلى فرسان الأمير المملوكي عز الدين أقطاي فلما اغتيل فرَّ بيبرس إلى الشام ، ثم إلى الكرك وعندما عاد إلى مصر ثانية بزغ نجمه كفارس مغوار وقائد محنك ، فهو بطل معركة المنصورة المشهورة . وكان هذا أول ظهور للمماليك البحرية كمقاتلين يدافعون عن مصر . وقد حكم بيبرس مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت ، واغتيال السلطان سيف الدين قطز .

***

فإذا ما عدنا إلى بغداد ، عاصمة دولة الخلافة العباسية ، لوجدنا أمر هذه الدولة قد شارف على نهاية أليمة ، فها هي قوات التتار تصل العراق لأول مرة في عام 642هـ . وبالإضافة إلى طموح التتار في السيطرة ، فإن هناك أسباباً أخرى شجعت المغول ومهدت لهم مهاجمة بلاد المسلمين ، وكان من أهم هذه الأسباب : أن الخليفة العباسي " الناصر " نفسه كان يغري المغول على غزو بلاد الخوارزميين ، وهو اتهام وجهه بعض المؤرخين ، ومن طريف ما يُروى أن الرسالة التي بعث بها الخليفة إلى المغول كتبها على رأس رسول حلق شعر رأسه ، ثم ترك حتى نما شعره فأرسله .

وكانت العلاقة بين علاء الدين خوارزمشاه والخليفة الناصر لدين الله جيدة في البداية ، ولكن العلاقة بينهما تدهورت حتى وصلت إلى محاولة علاء الدين إسقاط الخليفة .

كما أرجع المؤرخون هجوم التتار إلى تشجيع الشيعة الإسماعيلية لهم ، فقد كتبوا إليهم على حد رواية ابن الأثير : " يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه ، وأنه قد عادى جميع الملوك حتى الخليفة ... " .

كما جاء بغداد أيضاً رسول من التتار ، ورغم ذلك لم تخلُ سنة 643هـ من المناوشات بين قوات المغول وعسكر الخليفة ، ويقول الذهبي أن سنة 644هـ شهدت لقاءً غامضاً بين رسولين للمغول وبين الوزير مؤيد الدين بن العلقمي .

وفي عام 650 : يواصل التتار هجماتهم ، فتوغلوا حتى دخلوا حران والرّها ، وقتلوا ونهبوا مما أشاع الفزع بين أهل بغداد ، ولكن التتار يوقفون تقدمهم ، ويعودون من حيث أتوا .

وكان من الأسباب الرئيسة التي أدَّت إلى نهاية الخلافة العباسية هو ضعف شخص الخليفة المستعصم ، وهو ما أشار إليه جلال الدين السيوطي ، فقال : " ... وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند جداً ، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، فلما استخلف المستعصم كان خلياً من الرأي والتدبير ... " .

أما الطامة الكبرى ، فكانت في استسلام الخليفة المستعصم لرأي ومشورة وزيره العلقمي الذي اتُهم بالخيانة وموالاة التتار ، فقد كان شيعياً يعمل على زوال الدولة العباسية السنية ، وهو ما يسجله السيوطي أيضاً نقلاً عن الشيخ قطب الدين ، فقال : " ... ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي ، فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد ... " .

كما جاء في كتاب تاريخ الخلفاء ضمن أحداث عام 655هـ : " ... على هذا والتتار جائلون في البلاد وشرهم متزايد ونارهم مستعرة ، والخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم والوزير العلقمي حريص على إزالة الدولة العباسية ونقلها إلى العلوية ، والرسل في السر بينه وبين التتار ، والمستعصم تائه في لذاته لا يطلع على الأمور ولا له غرض في المصلحة ... " ، ويؤكد السيوطي على ممالأة الوزير للتتار واتصاله بهم ، فيقول : " ثم إن الوزير كاتب التتار وأطعمهم في البلاد وسهل عليهم ذلك ، وطلب أن يكون نائبهم ، فوعدوه بذلك ، وتأهبوا لقصد بغداد ... " .

ومن الأحداث العظيمة التي لها دلالة على اعتماد الخليفة السني على رأي وزيره الشيعي وأدت إلى إضعاف الدولة ، ثم انهيارها أن الوزير أشار على الخليفة بقطع راتب الجنود مما أدى إلى ثورتهم .

وما أن يبدء العام 656 الهجرى حتى كانت جحافل جيش التتار قد وصلت عاصمة الخلافة العباسية "بغداد" ، وقد بلغ عدد جندهم حوالى مائتى ألف فارس على رأسهم قائدهم المشهور هولاكو .

ولنفسح المجال للسيوطي ليصف لنا مشهد نهاية دولة الخلافة العباسية :

" ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، فأشار الوزير – لعنه الله – على المستعصم بمصانعتهم وقال : أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح ، فخرج وتوثق بنفسه منهم وورد إلى الخليفة وقال : إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته ، ولا يريد إلا أن تكون الطاعة ، كما كان أجدادك مع سلاطين السلجوقية ، وينصرف عنك بجيوشه ، فليجيب مولانا إلى هذا ، فإن فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد والرأي أن تخرج إليه ، فخرج إليه في جمع من الأعيان فأنزل في خيمة .

ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم ، وصار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتُضرب أعناقهم حتى قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار .

ثم مد الجسر وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ، فبلغ القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة ...

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنشاب من كل جانب ، حتى أُصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتُضحكه ، وكانت من جملة الحظايا ، وكانت مولّدة تسمى عرفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها ، وهي ترقص بين يدي الخليفة .... فانزعج الخليفة !!

***

المصادر والمراجع

تاريخ الأمم والملوك	ابن جرير الطبري
الكامل في التاريخ	ابن الأثير
البداية والنهاية	ابن كثير
تاريخ الخلفاء	جلال الدين السيوطي
الفصل بين الأهواء	ابن حزم
والملل والنحل	والشهرستاني
الفرق بين الفرق	البغدادي
مروج الذهب	المسعودي
الفهرست	ابن النديم
العقد الفريد	ابن عبد ربه
العقائد والديانات	ابن الجوزي
الطبقات الكبرى	ابن سعد
الفتنة الكبرى	طه حسين
إسلام بلا مذاهب	مصطفى الشكعة
جهاد الشيعة	سميرة مختار الليثي
جذور الفتنة	حسن صادق
سطوع نجم الشيعة	جرهارد كونسلمان
	ترجمة محمد أبو رحمة
الحركات السرية فى الإسلام	د. محمود اسماعيل
هارون الرشيد	محمد ابورحمة
التاريخ الإسلامي	إبراهيم بن محمود عبد الراضي
تاريخ الدويلات المستقلة	د. عفاف صبرة ، ود. نجوى كيرة
عصر الدولة الزنكية	د. على محمد الصلابي
شرح ديوان الحلاج	عبد القادر الحصني
الحشاشون	برنار لويس ، ترجمة محمد العزب موسى
خطط بغداد وأنهار العراق القديمة	مكسمليان شتريك
	ترجمة د.خالد إسماعيل علي.
الأغاني	الأصفهاني
موسوعة حضارة العراق	مجموعة من الباحثين
دائرة المعارف الإسلامية	دار الشعب
دول الإسلام	شمس الدين الذهبى
التاريخ العباسي	د. إبراهيم أيوب
الدولة العباسية	الشيخ محمد الخضري بك
ضحى الإسلام	أحمد أمين
بغداد مدينة السلام	د. صالح أحمد العلي
الزندقة والشعوبية	د. حسين عطوان
العصر العباسي الأول	د. عبد العزيز الدروي
الدعوة العباسية	د. حسين عطوان